الرقم الدولي المعياري للمؤتمر ـــــ (معتمد ومصنف دوليًا) ـــــ ISBN 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

فاعلية اللغة العربية في تعزيز الأمن الثقافي العربي

الأستاذ الدكتور محمد زرمان ـــ جامعة باتنة 1 ـــ الجزائر

مقدمة

تواجه اللغة العربية في أيامنا هذه تحدّيات كبيرة، وتعاني من صعوبات جمة فرضتها عليها معطيات الواقع العولمي التي ما فتئت تتسارع بوتيرة عالية لا تكاد تتيح لأحد أن يلتقط أنفاسه وهو يتابعها في حيرة واندهاش. ومن بين المعضلات التي طرحت نفسها على المجتمعات العربية في ظل هذه الأوضاع إشكالية الأمن الثقافي التي شغلت الباحثين والدارسين بعد أن تزايدت معدلات العنف في المجتمعات الإنسانية وصارت تهدد مصير البشرية، حيث تغيّر مفهوم الأمن التقليدي الذي يعتمد على القوة العسكرية ليتبيّن أن الدوافع الثقافية، والتصورات الفكرية هي العامل الأساس الذي يتحكّم في سلوك الإنسان.

ومما لا شك فيه أن الوطن العربي معنيٌّ بقضية الأمن الثقافي لوقوع مجتمعاته في قلب الأحداث العالمية وتأثره بكل ما يهبّ على العالم من تغيّرات متسارعة، ومستجدات متلاحقة، وأن الرهان معقود على اللغة العربية لتضطلع بهذه المسؤولية الحضارية باعتبارها رمزا قويا من رموز الهوية، والوعاء الذي يحفظ تراث الأمة وتاريخها، ويحمي مقوماتها التي ترتكز على المعتقد والتاريخ من الذوبان والتلاشي، ويمدّ أفرادها بمعاني الانتماء، ويقدم الحلول للأزمات المعرفية التي تعصف بهم، ويحميهم من الاستلاب والضياع.

فماذا نقصد بالأمن الثقافي؟ وما هي دلالاته وأبعاده؟ وما علاقته باللغة؟ وما هي طبيعة التحديات التي تواجه الأمن الثقافي العربي؟ وكيف نستطيع أن نفعّل اللغة العربية لتتمكن من مواجهة هذه التحديات وتحمل أعباء توفير الأمن الثقافي للمجتمعات العربية وتنجح في إدارة الحوار مع الأطراف العالمية المختلفة في وقت لا تزال تعاني فيه من ضعف التعليم، وقلة الوعي بدورها في حماية المجتمع، وإقصائها عن تحريك عجلة التنمية؟ وماهي أبز الأدوات والأليات التي يمكن الاعتماد عليها في تفعيل قدرة اللغة العربية في تعزيز الأمن الثقافي العربي من اجل بناء مناعة ثقافية قوية قادرة على الصمود والمواجهة أمام المؤثرات الثقافية الأجنبية؟

وتطمح هذه الورقة البحثية إلى مقاربة فاعلية اللغة العربية في تعزيز الأمن الثقافي العربي من خلال تحليل مصطلح الأمن الثقافي ومكوناته كالدين واللغة والتاريخ تحليلا مفهوميا، والبحث في علاقة اللغة به، والوقوف عند الأمن الثقافي العربي وما تفرضه عليه العولمة من إكراهات، وبيان مركزية اللغة العربية في تعزيز الأمن الثقافي العربي في هذا الزمن العولمي، ومحاولة اقتراح بعض الآليات والطرائق لتعزيز الأمن الثقافي العربي.

أولا: الأمن الثقافي، مقاربة مفهومية

الأمن الثقافي مصطلح معاصر يعبّر عن الأزمة التي أصابت الخصوصيات الثقافية والهويات الحضارية وهي تواجه تيار العولمة، وهو يتعلق بمدى قدرة المنظومة الثقافية القومية والوطنية على مواجهة التحديات التي يفرضها الانفتاح العالمي الراهن لحماية الموروث الثقافي والقيم الحضارية، ويعدّ الأمن الثقافي من أكثر الأبعاد غير

الملموسة للأمن، والأقل استحواذا على الاهتمام بين أبعاد الأمن المختلفة، بسبب غلبة المعطيات الاقتصادية والسياسية على الموضوعات الأمنية، والأكثر غموضا وتشعُّبا وتعقيدا. وقد ولد هذا المصطلح في ظل التغيّرات التي طرأت على المفهوم التقليدي لمصطلح الأمن والذي كان محصورا في المعاني الدفاعية بغرض حماية الدولة وضمان بقائها عن طريق تعزيز الإمكانات العسكرية باعتبارها مفتاح هذا الأمن ووسيلته الأولى، وقد وسّعت هذه التغيُّرات من مفهوم الأمن وعمّقته بعد أن تغيّرت طبيعة التهديدات المحدّدة لمفهومه التقليدي والتي تبيّن أنها لا يمكن مواجهتها بالقوة العسكرية وحدها، حيث فرضت التحديات المتشابكة الجديدة ضرورة النظر في معالجة الاحتياجات الأمنية للناس أفرادا وجماعات: "من خلال عدسة أوسع هي عدسة الأمن الإنساني التي استطاعت نقل التركيز بعيدا عن الدولة، بجعل الأفراد الوحدة الأساسية للتحليل الذي من المفروض أن يعيش في ظل ظروف اجتماعية واقتصادية وسياسية، تسعى إلى ضمان القيمتين التوأم المتمثلتين في التحرر من الخوف والتحرر من الحاجة"[i]، وقد أصبح الخوف والحاجة من أكثر الأخطار التي تهدد أمن المجتمعات بعد أن ارتفعت وتيرة الفقر المدقع، والعنف الإثني، والاتجار بالبشر، والجريمة المنظمة، وتغيّر المناخ، والأوبئة الصحية، والإرهاب الدولي، والانكماش الاقتصادي، وغيرها، وكلها ذات طبيعة عابرة للحدود ومتجاوزة للمفاهيم التقليدية للأمن التي تركز على الخيار العسكري فقط، حيث بات واضحا لكل ذي بصيرة أنه إذا كان من شأن الرصاصة أنها تقتل رجلا واحدا، فإن الكلمة قد تقتل جيلا بأكمله.

ويكاد يجمع الباحثون والدارسون على أن الأمن الثقافي قد ظهرت الحاجة إليه مع ظهور العولمة: "اقترن استعمال مفهوم الأمن الثقافي بميلاد ظاهرة العولمة في فجر عقد التسعينات من القرن الماضي"[ii]، فالعولمة هي التي أخرجت ثقافة المجتمعات من نطاقها القومي وأصبحت تهدد وجودها لأنها قدمت بديلا ثقافيا قويا تريده أن يكون نموذجا للعالم كله: "لقد كرّست نهاية القرن العشرين بروز تنميط ثقافي يسعى إلى إخضاع العالم لثقافة موحَّدَة عالمية، قائمة على تغريب العالم في شكل منظومة قيمية وأخلاقية واحدة"[iii]، وهذا التنميط الثقافي هو الذي اصطلح عليه باسم العولمة الثقافية التي هي في إحدى تعريفاتها: "محاولة الاندماج والتقارب الثقافي بين الشعوب المختلفة، وإزالة الفوارق الثقافية بينها ودمجها في ثقافة واحدة ذات خصائص مشتركة، تهدف إلى هيمنة ثقافة الأقوى على الثقافات الضعيفة، من خلال تذويب ثقافة الآخر وتلاشيها، ودمجها في ثقافة عالمية واحدة"[iv].

وهنا يكمن الخطر الأكبر الذي يستدعي الاهتمام بقضية الأمن الثقافي. فقد اتّضح أن العولمة الثقافية التي تخترق الهويات والثقافات، وتحاول ربط المجتمعات الإنسانية على اختلافها بعالم اللاأمة، واللاوطن، واللادولة تعدُّ من أكبر مهددات الأمن الثقافي حيث ترتب عليها انفتاح الثقافات وتداخلها لتصير عملية المحو والتخريب التي تمارسها الثقافة الغالبة على نظيرتها المغلوبة أمراً متيسّراً لوضوح الرؤية وسهولة الاستهداف. وهي تتوسل لتحقيق أهدافها بإمكاناتها الرهيبة التي أتاحتها لها ثورة الاتصالات وهي الإعلام والفضائيات والإنترنت: "إنّ وسائل الاتصال التكنولوجية الجديدة جعلت من الممكن فصل المكان عن الهوية، والقفز فوق الحدود الثقافية والسياسية، والتقليل من مشاعر الانتساب أو الانتماء إلى مكان محدد، إضافة إلى دور الإعلام في تضخيم الحقائق اعتمادا على الصور والرموز"[v]، ومن أسوأ ما ينتج عن ذلك إصابة المجتمعات الضعيفة بالهشاشة الثقافية التي تحول دون تطور المجتمع

في السياق الإيجابي من خلال زعزعة ثوابتها، وتفكيك عناصر هويتها الثقافية، وتقويضها وتبديدها، وتشجيع انتشار سلوكات وقيم هجينة وظهور مخلوقات ثقافية مشوهة فاقدة للذاكرة: "إن الثقافة إذ تتعولم وإذ تقاد عن بعد، لا تعود تخضع لمثال أولي أو نموذج ما، فهي في حين أضحت متعددة الأشكال ولا متشكلة، لم تعد تقدم أي مخطط محدد للكلام وللفعل، للأحلام وللأهواء، للأشغال وللتسليات، وهي حين تمضي في كل الاتجاهات تغدو للتو بلا معنى بلا دلالة، إنها لا تعود تعطي جواباً عن القول والفعل: لم تعد تكويناً، بل تغدو إعلاما وتواصلاً"[vi].

ومثلما اختلف الباحثون والدارسون في تعريف الأمن القومي اختلفوا أكثر في تعريف الأمن الثقافي، ولفت انتباههم تركيب المصطلح الذي رآه بعض المفكرين يوحي بالتناقض: "ففيما تميل لفظة الثقافة إلى معنى يرادف أو يجانس الإبداع والانفتاح والتفاعل، تحيل لفظة الأمن إلى معنى يقارب الدفاع ويجانس الانكماش والتقوقع. حين تبحث ثقافة عن أمنها بهذا المعنى تبحث عما يعزلها عن غيرها من الثقافات . وبالتالي . تسعى بنفسها نحو إفقار نفسها، بل نحو الانقلاب على ماهيتها كثقافة، أو قل نحو انتحار بطيء يأخذها إلى حتفها"[vii].

فهذا التناقض الظاهري قد يؤدي إلى سوء فهم المصطلح وتأويله على أنه دعوة للخوف من الآخر ورفضه، ووضع القيود والعقبات والمساحات الممنوعة ضده أكثر مما يدعو إلى الانفتاح والتفاعل مع الآخر والحوار معه، الأمر الذي يستدعي إزالة الالتباس والكشف عن المعنى الإيجابي للمصطلح. وفي هذا الصدد يرى عبد الإله بلقزيز أن أمن الثقافة يعني في جانب من جوانبها: "قدرتها على توفير حاجاتها، على الإنتاج والتراكم ومغالبة الندرة والخصاص والحاجة، ورفع خطر الخوف من العجز وفقدان القيم الثقافية والرمزية التي تجيب عن مطالب المجتمع والفكر والوجدان والذوق"[viii] ، أي اكتفائها بذاتها اكتفاء قوة، ويعني في جانب آخر قدرتها على الدفاع عن نفسها في حال تعرضت لهجوم ثقافي عدواني: "قد يتعرض أمن ثقافة ما لخطر الاستباحة والعنف الرمزي من مصدر من مصادر التهديد خارجي فيحمل المجتمع الثقافي على استنفار قواه ودفاعاته الذاتية لصون أمنه ومجاله الرمزي السيادي من خطر العدوان. وكما أن الدفاع عن سيادة الدولة وأمن المجتمع حق مشروع حين يتعرضان للخطر، كذلك الدفاع عن أمن الثقافة حق مشروع حين يراد بها إلحاق الضرر"[ix].

فإذا نظرنا إلى المصطلح بهذا المفهوم تبيّن أنه يؤدي المعنى المطلوب، وبذلك يزول الالتباس ويتبيّن أن الثقافة مهما كانت قادرة على التفاعل والحوار هي بحاجة أيضا إلى ما يحميها من الأخطار والتهديدات بمختلف أنواعها ويجعل الأمن الثقافي عملة ذات وجهين: وجه تستنفر فيه طاقتها لتكون قوية بما فيه الكفاية حتى تتمكن من تلبية احتياجات المجتمع الذي تنتمي إليه، ووجه دفاعي تصدّ به الغارات الثقافية التي تتعرض لها وتهدد كينونتها: "فالتأسيس العميق ثقافيا لا يتعارض مع الانفتاح الواسع على تداول المعلومات بشبكاتها المستجدة في قرية كونية"[x]

وقد تناولت تعريفات الأمن الثقافي مختلف الجوانب التي يوحي بها المصطلح، ومن أدق التعريفات المقدمة لهذا المفهوم تعريف أرنولد وولفرز Arnold wolfersالذي يقول فيه أن الأمن الثقافي في جانبه الموضوعي: "يعني غياب أية تهديدات تجاه قيم مكتسبة، وفي جانبه الذاتي يعني غياب الخوف من أن يتم المساس بأيٍّ من هذه القيم"[xi]، ومنها أن الأمن الفكري هو: "حماية فكر المجتمع وعقائده من أن ينالها عدوان أو ينالها أذى"[xii]، وعرفه

بعضهم بأنه: "قدرة المجتمع على الاستمرار في طابعه الأساسي في ظل ظروف متغيّرة أو تهديدات فعلية عن طريق الحفاظ على مكوّنات الثقافة الأصلية لمواجهة التيارات الثقافية الوافدة أو الأجنبية، أي حماية وتحصين الهوية الثقافية من الاختراق والاحتواء من الخارج"[xiii].

وذهب بعض الباحثين إلى أن الأمن الثقافي هو: "ذلك النمط من الأمن الذي يحقق الحفاظ على الذاتية الثقافية في مواجهة الهيمنة على الشخصية القومية، وكذلك الحفاظ عليها من تهديد التيارات الثقافية المختلفة، مع حماية المؤسسات الثقافية من الانجراف.. وذلك بحماية مقومات الثقافة وتأصيلها وتطويرها، بحيث تستطيع مسايرة المستجدات والتحولات التي يشهدها العالم"[xiv]، وأشار مدحت الجيار إلى أن: "الأمن الثقافي يعني وجود ثقافة فاعلة وقادرة على حماية نفسها وحماية المؤمنين بها ومستخدميها، وهي ثقافة آمنة لأنها متفتحة، قادرة على التعامل والتعاون مع غيرها من الثقافات"[xv]

فهذه التعاريف وغيرها تجمع على أن مدار الأمن الثقافي يتمثل في القدرة على توفير الحماية المطلوبة للثقافة من خلال المحافظة على مكتسباتها الدينية واللغوية والقيمية الأخلاقية والفكرية والتربوية وغيرها. وأن الثقافة تحتل فيها مركز الصدارة، وبذلك تكون الثقافة قد تحوّلت مع انتشار العولمة إلى عامل أساسي من عوامل التأثير في صناعة الواقع العالمي بعد أن أصبحت وسيلة قوية من وسائل القوى العالمية لبسط نفوذها بعيدا عن القوة العسكرية، وبات أمنها أيضا ضرورة ملحّة تستدعي الاهتمام البالغ أكثر من أيّ وقت مضى.

إنّ هذا الواقع الجديد قد نقل الثقافة التي كانت في عرف كثير من المجتمعات من الكماليات التي تكتسبها نخبة المجتمع وعِلْيَةُ القوم فيه إلى مصدر مهم من مصادر قوة هذه المجتمعات وقدرتها على الثبات في وجه التغيّرات العالمية ومحاولات الاحتواء والتدجين: "لقد ثبت أن الثقافة ليست ترفا، أو حلية خارجية تضاف إلى مكونات شخصية الفرد أو المجتمع، أو أنها منتج قليل الأهمية إذا قيس بالمنتجات الطبيعية أو الصناعية الملموسة، أو أنها لا تندرج ضمن عناصر القوى الرئيسية للفرد أو الجماعة مثل القوة العسكرية أو الاقتصادية لقد برهنت الدراسات على أن الثقافة هي القوة الرئيسية التي تتولد عنها القوى الأخرى، وهي اليوم مهددة بأنواع جديدة من المخاطر، أفرزتها العولمة بهدف فرض نمط ثقافي معين"[xvi].

كما بات واضحا بما لا يدع مجالا للشكّ أن الثقافة لم تعد درسا أكاديميا، بل باتت عنصرا مهما وثابتا في بناء الحضارة، والقاعدة التي يقوم عليها الصرح الحضاري لأية أمة، وجزء صميم من مكونات المجتمع الأساسية وصفة لازمة له، والأداة الأكثر ضمانا لاستمراره، والسلعة الأكثر تداولا اليوم: "توجد في كل مجتمع ثقافة أصلية تحدد ملامحه الأساسية، لها بعد تاريخي ومجال جغرافي، فلا يمكن أن تنتقل العادات والتقاليد واللغة والقيم من سلف إلى خلف في فراغ، أي خارج المجتمع الذي يغذيها، وبالتالي فإنه لا يوجد مجتمع بلا ثقافة، ولا ثقافة بلا مجتمع"[xvii]، وأن الأمن الثقافي لا يعدو أن يكون معناه العام يدور حول ضرورة توفير الثقافة الصالحة للناس حتى يتمكنوا من خلالها أن يعيشوا حياتهم المعاصرة بشكل سليم وإيجابي.

وتتكون الثقافة من عدة عناصر أهمها على الإطلاق: الدين واللغة والتاريخ، والتي تتفاعل فيما بينها عبر الزمن لتنتج التراث الذي يحمل عناصر الأصالة التي تمنحها القدرة على التواصل مع الماضي والقدرة على المعاصرة

والتطور في المستقبل، وبها يعرّف الناس أنفسهم كما يقول هنتنغتون: "إنّ الناس يعرّفون أنفسهم بموجب النسب والدين واللغة والتاريخ والقيم والعادات والتقاليد وكذلك المؤسسات. إنهم ينتمون إلى مجموعات ثقافية: القبيلة، التجمعات العرقية، المجتمعات الدينية، الأمم، والحضارات بمفهومها الواسع"[xviii]، والأمن الثقافي معنيٌّ بحماية هذه العناصر من كل محاولات الاحتواء والهيمنة ومحاولات الغزو الثقافي والاختراق الثقافي: "فبمقدار حيوية الثقافة وقدرتها على التجدّد والتفاعل تكون الهوية القومية أكثر قوة. وعلى العكس، فبمقدار جمودها تصبح أكثر قابلية للاختراق وتتعرض بالتالي لخطر الذوبان في كيانات ثقافية مهيمنة، تستوعبها وتُدمجها، وتستتبعها وتطمس خصوصيتها"[xix].

وتكمن أهمية الأمن الثقافي في أنه: "عنصر لا غنى عنه من عناصر النهضة الاجتماعية، ومظهر من مظاهر القدرة على التحرر من المؤثرات الخارجية الوافدة، فهو أعلى مظاهر استرداد الهوية"[xx]، التي تجعل الفرد مشاركاً وإيجابياً وفعالاً، وقادراً على مواجهة أي تغيرات مجتمعية خارجية أو داخلية , وتجعله قادراً على التكيف مع أي تغيرات في مجتمعه وحاجاته وطموحاته، ويساعده على توظيف أفكاره بطريقة فعالة لتحقيق أفضل مستويات التقدم.

وخلاصة القول أن الأمن الثقافي هو: "بناء قوة الوجود الثقافية الذاتية التي لا تقوى على المقاومة والصمود فحسب، وإنما على الاندفاع والملاحقة والفعل المؤثر"[xxi]، مما يعني أن الأمن الثقافي يعتمد على عنصرين أساسيين هما: الاعتزاز بالذات الثقافية الحضارية من خلال إيجاد ظروف قابلة لتنمية وتطوير الثقافة لحماية نفسها والتكيّف مع التغيّرات بجعلها حاضرة في الحركة الاجتماعية والثقافية وليس بزيادة الرقابة عليها وكتم أنفاسها وخنقها والتضييق عليها والخضوع لمقتضيات السائد وغياب الإبداع والمبادرة، وثانيهما الانفتاح والحوار مع الثقافات المعاصرة لأن الانطواء والانغلاق على ثقافة العصر ومنجزاته إفقار للوجود الذاتي[xxii]. والانفتاح في هذا المقام: "لا يعني التفلت من الضوابط القيمية، كما أنه لا يعني الانخراط في سجالات أيديولوجية مع الثقافات الإنسانية الأخرى، وإنما يعني فهم حركة الثقافات الإنسانية الأخرى بكل مراحلها ومحطاتها، واستيعاب ميكانيزماتها، والعمل على هضم عناصر القوة فيها"[xxiii]. لأن الأمن الثقافي لم يعد في حياتنا المعاصرة مجرد هدف ثقافي فكري وإنما أصبح هدفا حضاريا شاملا.

وبناء عليه، فإن الأمن الثقافي العربي يعني ضرورة التفاعل الخلاق مع الإطار المرجعي والحضاري للثقافة العربية والإسلامية، وذلك من أجل أن تتمكن هذه الثقافة من الاستفادة من هذه الثروة الهائلة التي يختزنها الإطار المرجعي والحضاري للمسلمين. كما أن التفاعل الخلاق والمبدع مع الثقافات الإنسانية والمنجزات الحضارية، لا يمكن أن تتم على أكمل وجه، بدون الاعتزاز الواعي بالإطار المرجعي والفكري للعرب والمسلمين[xxiv].

وتقع اللغة في صدر مكوّنات هذا الإطار المرجعي، وتحتلّ رأس الأولويات في مشروع الأمن الثقافي العربي لما تضطلع به من مهام في غاية الخطورة فيما يتعلق بالحفاظ على الكيان الحضاري للمجتمعات.

ثانيا: اللغة العربية والأمن الثقافي، أية علاقة؟

وبناءً على ما أسلفنا فإن علاقة الأمن الثقافي باللغة علاقة وثيقة تتمثّل في أنّ اللغة عبارة عن طاقة إنسانية ذات قوة إنتاجية توليدية فائقة تتفاعل عن طريقها مع المجتمع تفاعلا بنيويا عميقا ينتج عنه الإنسان ثقافيا، وهي تمثل بهذه الصفة ذاكرة المجتمع وأداة الاتصال فيه، وأساس كل النشاطات الثقافية، والمسؤول الأول عن توفير الأمن الثقافي للهويات والخصوصيات الثقافية التي تتعرض للتهديد لأنها هي المحور الجوهري في منظومة الثقافة لارتباطها الوثيق بالمعتقدات، والقيم، والتراث، والفكر والإبداع، ولدورها الرائد في تشكيل وبناء الوحدة الوطنية، والحفاظ على تماسك المجتمع بما تحمله من عوامل تشدّ لحمته، وتقوّي أواصر العلاقات بين أبنائه، يقول الشاعر بوتينا: "إنّ الشعوب يمكن أن تُكَبَّل بالسلاسل، وتُسَدُّ أفواهها، وتُشَرَّد من بيوتها، ويظلّون مع ذلك أغنياء، فالشعب يفتقر ويُسْتَعْبَد ما إن يُسْلَب اللسان الذي تركه له الأجداد، عندئذ يضيع إلى الأبد"[xxv]، وهي . في المقابل أيضا . السلاح الفعّال للاختراق النفسي وعليها مدار كل تسلّل فكري، لذلك قال عنها الفيلسوف الألماني مارتن هايدغر: "إِن لُغتِي هِي مسكنِي؛ وهي موطني ومستقرّي؛ وهي حدود عالمي الحمِيمِ ومعَالِمِهِ وتَضَارِيسِه، ومِن نوافذِها ومِن خِلال عُيُونِهَا أَنظر إِلَى بقيّة أَرجاء الكونِ الواسِع"[xxvi]

واللغة العربية التي تمتد مساحة انتشارها إلى أقطار عديدة، وتحمل بين طياتها كتاب المسلمين المقدّس والمحفوظ بالوعد الإلهي، وتحتكم على تراث غنيّ ومتنوع أثرته عقول العرب والمسلمين طيلة قرون عديدة، وتمثل خط الدفاع الأول عن الكينونة الحضارية للمجتمعات العربية بحاجة ماسة في هذه الظروف التي تعيشها في ظل العولمة إلى العناية والرعاية التي تخلصها من مظاهر ضعفها، وتشدّ من أزرها، لتتمكّن من أداء دورها في توفير الأمن الثقافي اللازم للمجتمعات العربية التي تعصف بها الأخطار من كل جانب من خلال تأمين انتقال تراثها الغنيّ من جيل إلى جيل، بحيث يتحوّل إلى درع قويّ يلهم الأجيال معاني العزة، ويمدّها بأسباب المقاومة والصمود. وقد شهد لها تاريخها الطويل أنها استطاعت خلال ازدهار الحضارة الإسلامية أن تكون عاملا حاسما في توحيد مشارب الشعوب والأجناس التي أظلتهم، وأن تصهرهم جميعا في بوتقة الإبداع الحضاري. يقول الشيخ محمد البشير الإبراهيمي: "فاللغة العربية منذ دخلت في ركاب الإسلام على الأمم التي أظلها ظله كانت سببا في تقارب تفكيرهم، وتشابه عقلياتهم، وتمازج أذواقهم، وتوحيد مشاربهم، وإنّ هذا لمن المناهج السديدة في توحيد الأمم المختلفة الأجناس"[xxvii].

لكنها اليوم تعيش أياما عصيبة وتتعرض للتفكيك التدريجي، بعد أن تعرّضت في العصر الحديث لموجة الاستعمار التي كرّست ضعفها الذي طالها خلال قرون السكون والجمود العقلي والعلمي، وعملت على تهميشها ما أمكن، وإقصائها من ميادين الحياة النشيطة ومزاحمتها بلغات المستعمر، الأمر الذي أرهقها وكبّلها وحصرها في زوايا المجتمع الضيقة وأصبح يهدد وجودها تهديدا حقيقيا، فقد دلت الدراسات على أن إبعاد اللغة الأم عن مواقعها الطبيعية كلغة قومية في مجالات التعليم والبحث والعمل والإنتاج ومنافستها بلغة أجنبية في وظائفها يعدّ من أخطر ما يهدد الأمن الثقافي. وهذه الحالة هي التي اصطلح عليها باسم الهيمنة اللغوية التي تتمثل في: "تلك الحالة التي تسيطر على عقول شعب معيّن تجاه لغة أجنبية مهيمنة على لغتهم الأصلية، بحيث يعتقدون أنه يجب عليهم استخدام هذه اللغة الأجنبية في معاملاتهم اليومية، وفي نظامهم التعليمي، وفي جوانب الفلسفة والأدب، والمعاملات

الحكومية والقضائية والإدارية باختلاف أشكالها، إن الهيمنة اللغوية تتبع منهجية تمكنها من السيطرة حتى على عقول النخبة، بحيث يظن المرء بأن لغته الأصلية لا ترقى إلى مصاف اللغات الأجنبية المهيمنة، وبذلك يبدأ العزوف عن اللغة الأصلية واحتقارها"[xxviii].

والمجتمعات العربية تعيش اليوم ظاهرة الهيمنة اللغوية بكل تفاصيلها، وبخاصة بعد أن سمحت حكوماتها باعتماد اللغات الأجنبية إلى جانب العربية بدواعي الحاجة إليها، كونها لغات عالمية أو لغات علم، وقد أفضى ذلك إلى دخولها في منافسة شرسة وغير شريفة مع اللغة العربية فعطلتها عن وظائفها الطبيعية في حماية الهوية الحضارية، وهو ما أدى إلى ما نشهده من مساس بالثوابت القومية، وإضعاف معاني الانتماء في نفوس أبنائها، لكون اللغة هي خط الدفاع الأول عن الأمن الثقافي، والأداة الوحيدة والمثالية لنقل ثقافة الأمة إلى أبنائها باعتبارها ذاكرة الأمة التي تختزن فيها تراثها ومفاهيمها وقيمها، ووعاء الهوية ولسان المواطنة وحاملة الموروث الثقافي والحضاري وآلة الإنتاج المعرفي والإبداعي: "لن يندم العرب على شيء كما قد يندمون على أنهم لم يلبّوا نداء لغتهم وهي تستجير بهم منذ عقود أن أدركوني. هَتَفَتْ بهم همسا منذ أيام الاستعمار، ثم صاحت عند انقشاع غمته، وها هي لا تبرح تشكو وتستغيث"[xxix].

فالعلاقة بين اللغة العربية باعتبارها منتجة للثقافة وصانعة للهوية وبين الأمن الثقافي العربي علاقة جدلية، وترابط قويٌّ وتفاعل مستمر بحيث يؤثر كل منهما في الآخر إيجابًا وسلبًا، قوةً وضعفًا؛ فكلما قويَت اللغة توفر قدر أكبر من الأمن الثقافي للمجتمع، وكلما ضعفت نقص رصيد هذا الأمن واستفحلت الأخطار التي تهدده، لأن انتفاء الأمن اللغوي لا يقل أهمية عن انتفاء الأمن العسكري والاقتصادي.

ثالثا: الأمن الثقافي العربي وإكراهات العولمة

إن التعريفات التي وُضِعَت لتوصيف العولمة الثقافية بعدما بدأت نتائجها تظهر قد جعلت بعض الباحثين والمفكرين يعتقدون أنّ العولمة الثقافية لا تحمل أيَّ تهديد ثقافي، لأنها تعني: "ترك الحرية المطلقة للثقافات الأخرى أن تعبّر عن نفسها، وتنتقل من نطاقها الضيق إلى آفاق رحبة وواسعة من العالم وفق فرص متكافئة بحيث تتفاعل الثقافات فيما بينها في ظل ثورة الاتصالات التي تُسَهِّل نقل الأنماط الحضارية والثقافية من منطقة إلى أخرى"[xxx]، لكن هذا الظنّ المغرق في التفاؤل اصطدم بالحقيقة المرة التي تكشَّفَت عنها الوقائع، وتبيّن لكل ذي عقل أنّ الثقافة باتت ساحة صراع، وأنّ: "تدفُّق المعلومات يجري باتجاه واحد من الغرب إلى الشرق في محاولة لتعميم تطبيق أمر ما على العالم كله"[xxxi]، وتكمن خطورة هذه العولمة الثقافية في أنها مبنية على سرعة انتشار المعلومات وسهولة حركتها مع إمكانية الوصول إليها بغير رقيب أو حسيب[xxxii]، وفقدان القدرة على التحكم في تدفق الأفكار، والقيم، والقناعات من خلال التداول الحرّ للمعلومات والأخبار.

بل إن الغرب يمارس بالموازاة مع تصدير ثقافته حربا مقنَّعَة على ثقافة الآخر من خلال تشويهها في عقول أبنائه واحتقارها لتحصينهم من تأثيراتها وإبقائهم في محيطهم الغربي، وموقفه المعادي للثقافة العربية الإسلامية وقيمها وتاريخها معروف ومشهود، وبذلك تكون العولمة بهذا المفهوم اغتصاب ثقافي وعدوان رمزي على سائر

الثقافات لإسقاط عناصر الممانعة والمقاومة لديها، واختراقها واحتوائها: "لقد استطاعت العولمة بأسلحتها وعتادها أن تخترق الثقافات الضعيفة التي تفتقر إلى مناعة تساعدها على المواجهة والدفاع، مما يسهل محوها واندثارها وفي أقل الأحوال ذوبانها، وفي هذه الحالة تفقد الثقافة ملامحها كلياً وتغدو ممسوخة مقلِّدة، فتحدث القطيعة الثقافية مع الماضي والتاريخ واللغة والدين والعرق، ويغدو المنتمي لهذه الثقافة بلا هوية، ولعل أبشع داء يمكن أن يصيب المنتمين للثقافة المهددة الضعيفة هو داء فقدان الذاكرة الثقافية الذي ينتج أساساً عن تدمير الخلايا الثقافية"[xxxiii].

ويقع الأمن الثقافي العربي في موقع الضعف والضحية إذا صحَّ التعبير، بسبب طغيان الثقافات الأجنبية على الشبكة العنكبوتية، والتي أصبح احتمال اكتسابها: "وجعلها جزءً من الشخصية الوطنية كبيرا جدا، خصوصا لدى المجتمعات غير المحصَّنَة بالهوية المتأسّسة بوضوح"[xxxiv]، واللغة العربية . باعتبارها مرتكزا أساسيا من مرتكزات الأمن الثقافي العربي . تعاني تبعا لذلك من الاغتراب في ديارها بسبب الازدواجية اللغوية، وهو اغتراب تتفاقم حدته لدى الشباب، فالحاصل اليوم أن الشباب العربي يكاد ينطق بلغة لا يكتبها، ويكتب لغة لا ينطقها، واللهجات العامية تكتسح المجال الحيوي للعربية الفصيحة في قلاعها الحصينة وتغزو المؤسسات التعليمية، وتطغى على أجهزة الإعلام المرئية والمسموعة، ويتم استبعادها من مؤسسات التعليم العالي. وهي غير قادرة . في ظل العولمة . على مواجهة سرعة تدفق اللغة الأقوى التي تملك مقوّمات القوة والهيمنة والسيطرة على اللغات الأخرى، ومن أبرز مظاهر ذلك: "صعوبة ملاحقة وتعريب كلّ ما هو جديد من مصطلحات علميّة وأدبيّة وثقافيّة وأسماء ومنتجات وماركات صناعيّة وحرفيّة في الميادين كافة وذلك لعدم وجود جهة عربيّة متخصّصة بمتابعة كلّ ما هو جديد في كلّ الميادين السّالفة الذكر وتقوم بتعريب المصطلحات والأسماء الجديدة، فإنّ ذلك سيؤدّي بلا شكّ إلى سيادة المصطلحات غير العربيّة وطغيانها على لغتنا العربيّة، وتأثيرها بشكلٍ كبير أيضًا على المناهج التّربويّة والتدريسيّة وصولًا إلى تداولها بين المثقّفين والأدباء والعلماء حتّى عامّة المواطنين، ما يهدّد مكانة اللّغة العربيّة"[xxxv]

وكلما زادت إكراهات العولمة التي تتطور بسرعة مذهلة كلما ازدادت التحديات والمخاطر التي تواجه اللغة العربية في ظل الضعف الحضاري العام الذي تعاني منه المجتمعات العربية، وفي ظل غفلة أهلها عن قيمتها الكبرى وشراسة المخاطر التي تواجهها: "ومهما يكن من أمر هذه التحديات في مجملها الخارجية منها والداخلية فإنّ الأخطر منها جميعا في الوقت الراهن هو مبالغة أهل هذه اللغة وأصحابها في الإعراض عنها وإهمالها والتفريط فيها، وعدم ثقتهم في ذاتهم ولغتهم وتخلّيهم عنها، وفي النظرة السلبية والأحكام القبليّة التي يصدرونها عليها، وليس هناك من تهديد يمكن أن تتعرّض له لغة من اللغات أكبر من تنكُّر أهلها لها وعدم حرصهم على توريثها لأبنائهم والأجيال التي تأتي بعدهم، لا سيما في ظل مزاحمة اللغات الأجنبية القوية لها"[xxxvi].

وهذه الهزيمة النفسية التي تسكن في أعماق أبناء العربية عقبة كبيرة من العقبات التي تقف في وجه الأمن الثقافي العربي وبخاصة وأن تهديدات العولمة تزداد يوما بعد يوم، وأن الأمن الثقافي مقرون بالرغبة الداخلية لدى المجتمعات في التمسّك بهويتها، والاعتزاز بلغتها، والدفاع عن كيانها الحضاري ضد كل ما يمكن أن ينتقص منه، ومقرون أيضا بحماية اللغة ودعمها بقوة تمكّنها من الصمود والمقاومة، وتدفعها إلى التحدّي واستنفار طاقاتها الكامنة لمجاراة الواقع العالمي والمشاركة في صنع أحداثه بجدارة.

غير أن الواقع البائس ينبئنا أن الأمن الثقافي العربي يعاني أكثر من غيره من إكراهات العولمة لأن اللغة العربية التي هي الركيزة الأساسية التي يتكئ عليها للقيام بدوره في حماية المجتمعات العربية تتعرض لمحن كثيرة ومتعددة لعل أخطرها جميعا كما أسلفنا: "انهزام أبنائها نفسيا أمام الزحف اللغوي الداهم، واستسلامهم . في مجال العلوم بالذات . للغات الأجنبية بحيث تكوّنت في العالم العربي جبهة عنيدة تجاهد للإبقاء على العربية بمعزل عن مجال العلوم والتكنولوجيا. فما دامت صفوة المشتغلين في العلوم تعرف الفرنسية والإنجليزية، فلا بأس من عزل اللغة العربية، بل قتلها! "[xxxvii].

خامسا: آليات وطرائق تعزيز الأمن الثقافي العربي

ما فتئ الأمن الثقافي . منذ ظهور الحاجة إليه . مع طلائع العولمة يكتسب أهمية متزايدة يوما بعد يوم، ويتساوى . بل يكاد يتفوق . على الحاجة إلى الأمن العسكري، والأمن الاقتصادي، والأمن الغذائي، والأمن البيئي وغيره. وذلك لصلته القوية بالهوية، ولصلة الهوية بالثقافة التي هي المجسّد الفعلي لمختلف العناصر المكوِّنة للهوية التي تحتوي الكينونة الحضارية والتاريخية للمجتمعات.

فقد دلّت الأحداث المتسارعة، والتغيّرات المتلاحقة أن زمن الثقافة المحمية قد انتهى، ولا مجال لتفادي العولمة وتياراتها الهادرة التي ترتفع وتيرتها يوما بعد يوم، وتكتسح أمامها كل الثوابت والمقدسات، وتبتلع الخصوصيات، وتصيب الثقافات بالهشاشة والضعف والهزال، وتتغوّل بشكل مرعب يبعث على اليأس، غير أن الخبراء والباحثين والمتخصصين يؤكدون على أن الثقافات تحمل في ذاتها عوامل المقاومة والصمود، وكلّ ما هو مطلوب من أبنائها هو تفعيل هذه العوامل، لأن السبيل الوحيد للوقوف في وجه العولمة هو مواجهة الثقافة بالثقافة.

واللغة العربية التي تعيش . كما أسلفنا . ظروفا عصيبة مطالَبة بأن تكون في مستوى التحديات، وأن تستفيد من خطة استراتيجية تمكّنها من مواجهة هذه الأخطار، وتجاوز التحديات لتتمكّن من الصمود، وتنجح في تثبيت أقدامها في هذا العالم الذي يموج بالحركة والتغيّرات السريعة، وتستوعبها وتتمثلها، وتنخرط في موجات العولمة بقوة وثقة، وتندمج في تحولاتها، وتستغرق في تياراتها تمهيدا للاستفادة من إيجابياتها، وتفادي سلبياتها ما أمكن لها ذلك.

ومن أهم خطوات هذه الإستراتيجية التي تركّز على أهم المجالات الحيوية ذات الصلة الوثيقة بالهوية نذكر:

ـ العكوف على إعداد عمل عربي مشترك يقوم على القراءة الواعية الدقيقة للواقع العربي وطبيعة علاقته بالقوى العالمية، ويقدم . تبعا لذلك . تصورا شاملا لقضايا اللغة العربية، ويحاول حصر مهددات الأمن الثقافي، ويرسم خطة لمعالجة هذا الوضع في ضوء ما أسفرت عنه الدراسات الميدانية.

ـ التأكيد على دور القرار السياسي في حماية اللغة العربية من خلال سنّ القوانين، ومن خلال إنشاء مؤسسات لحمايتها، لأن الأمن الثقافي لا يتحقق بالنيات الحسنة ولا بالتمنيات وكثرة التوصيات بل بالحماية القانونية وتطبيق قوانين حماية اللغة العربية التي ظلت مجمّدة منذ صدورها، ودعم البنية التحتية والتشريعية التنظيمية للأنماط والنشاطات الثقافية وتحديد الميزانيات المناسبة لها: "وإصدار قوانين جزائية زجرية رادعة لتحصين مكانة العربية في أوطانها، والحدّ من الاستهتار بها وتلويثها وإفسادها، وحمايتها من سيطرة اللغات الأجنبية ومزاحمتها، وجعل إتقانها بدرجة معيّنة شرطا في تسلُّم الوظائف والمسؤوليات في أجهزة

الدولة"[xxxviii]، غير أن الواقع يسجل أن أصحاب القرار السياسي لا يولون للأمن الثقافي واللغوي الأهمية الجديرة به، ولا يدركون خطورة القرار السياسي وأهميته في دعم الأمن الثقافي العربي.

وممن شدّدوا على أهمية القرار السياسي ودوره في حماية اللغة العربية عبد السلام المسدي الذي عزا انهيار المنظومة اللغوية العربية إلى عدم فعالية وجدية هذا القرار، وذهب إلى أن العرب لن يتمكنوا من كسب رهان التاريخ إذا خذلوا لغتهم واحتموا باللغات الأجنبية أو اللهجات العامية، ولن يستطيعوا أن ينخرطوا في مجتمع المعرفة خارج دائرة اللغة العربية، لأن اللغة تؤثر على الشخصية والفكر والمعرفة: "لن يفلح العرب في كسب رهان التاريخ لا بواسطة اللغة الأجنبية ولا بوسائط لهجاتهم العامية، ولو أرادوا أن يفعلوا ذلك عبر الطريق الأول لظلوا تابعين طول الدهر، ولعجزوا أن يصيروا يوما متبوعين، ولو شاؤوا أن يفعلوا ذلك بالثانية لتراكم عليهم التخلّف عقودا ريثما يجرُّون لهجاتهم جرًّا ليصعدوا بها إلى مرتبة الأداء الذهني المُصَفَّى من عوالم الحسِّ والمادة"[xxxix].

. فإذا وُجِدَ القرار السياسي الذي يحمي اللغة العربية فإن ذلك يعدّ خطوة هامة جدا لما سيأتي بعده والذي يتمثل في التمكين للغة العربية في كافة المجالات، وإرساء حضورها في الحياة العامة، من خلال التّوسّع في استخدام اللّغة العربيّة الفصحى بمختلف الدول العربيّة في جميع وسائل الإعلام المرئيّة والمقروءة والمسموعة، مع التّأكيد على ضرورة نشر كافة ما يعرض في وسائل الإعلام باللّغة العربيّة وليس باللّهجات المحليّة التي أصبحت تحتلّ حيّزًا كبيرًا في معظم برامج وسائل الإعلام العربيّة.

ـ مركزية ومحورية مناهج التربية والتعليم في بناء الأمن الثقافي لأن الأسرة والمدرسة هي المؤسسات المسؤولة عن إنتاج القيم والرموز في الوطن العربي. حيث يجمع الباحثون على أن تطوير التعليم في مختلف مراحله، وبشكل خاص التعليم العالي، هو أداة الأمن الثقافي للنهوض بالمجتمعات العربية في مختلف حقول المعرفة والإنتاج والإبداع؛ ذلك أن التوظيف في تحسين الإنتاج العلمي ووضعه في خدمة المجتمع هو المدخل الطبيعي للارتقاء بالإنسان الفرد أولا، وبالمجتمع ثانيا، وبالحضارة الإنسانية الشمولية في عصر العولمة.

ـ التأكيد على وطنية النظام التعليمي وإحكام السيطرة عليه لتشكيل وجدان وهوية الأجيال القادمة، وضرورة تبنّي النظام التعليمي لمناهج مدروسة مشتقة من ثقافة المجتمع وتعبر عن فلسفته واتجاهاته وحاجاته ليكتسب التلاميذ والطلاب قيم المجتمع ويتم تعزيز الهوية في نفوسهم وغرس القيم في عقولهم وقلوبهم، ودعم قيم الولاء والانتماء، وتأكيد الثوابت القومية من موقع قوة، حيث أن المجتمعات العربية في أشد الحاجة إلى نسق قيمي متماسك يوحّد بين أفراد المجتمع ثقافيا وفكريا وحضاريا[xl].

ـ الاستعانة في تدريس اللّغة العربيّة بالوسائل السّمعيّة والبصريّة الحديثة، لمختبرات اللّغة وأجهزة الاستماع، والأشرطة المرئيّة، والشّرائح المصوّرة، وأقراص الحاسوب والاستفادة من التّقنيّات الفضائيّة لنشر العربيّة عبر برامج التعليم من بعد، والاستفادة من تجارب الآخرين في كلّ هذه المجالات لمعرفة استراتيجيّات التّدريس ومداخله وأساليبه وتقنيّاته[xli].

ـ ضرورة قيام المؤسّسات التّعليميّة في الدول العربيّة بتعريب التّعليم وترجمة العلوم المختلفة سواء في المدارس أو الجامعات حتّى يتيسّر فهم تلك

العلوم واستيعابها وجعلها في متناول الطلّاب في جميع مراحل التّعليم، ففي تعريب العلوم حثّ للطلّاب على تعلّم العربيّة وإتقانها لحاجتهم لفهم تلك العلوم الحديثة المعرّبة، فإذا لم تتوافر المؤلّفات العلميّة المعرّبة يضطرّ الباحثون إلى تعلّم اللّغات الأخرى كالإنجليزيّة، متذرّعين بدوافع استيعاب العلم الحديث، وتعلّم تلك اللّغات يكون على حساب إتقان العربيّة[xlii].

ـ تسخير وسائل الإعلام المختلفة والتي أصبحت في عصرنا الحالي سلاحا شديد الفعالية وشديد الخطورة لخدمة اللغة العربية، وتوجيهه لدعمها وتقوية وجودها في الأذهان وعلى الألسنة، وإيقاف حملات تشويهها، ومحاولات إقصائها وتهميشها، لأنّ الإعلام في هذه المعركة المصيرية: "هو الأقوى، ولذلك يكون تأثيره في اللغة بالغا إلى الدرجة التي تُضعِفُ الخصائص المُمَيّزة للغة، وتُلحِق بها أضرارا تصل أحيانا إلى تشوُّهاتٍ تفسد جمالها... فهو الذي يهيمن عليها ويقتحم حرمها، وينال من مقوّماتها ومكوّناتها فتصبح أمام عنفوانه وطغيانه طيّعَة ليّنَة، تسير في ركابه، وتخضع لإرادته، وتخدم أهدافه، ولا تملك إزاءه سلطة ولا نفوذا"[xliii]، لذلك بات من الضروري توجيه وسائل الإعلام لتقوم بالمشاركة الفعالة في عملية تنمية لغوية: "تستقيم فيها حال اللغة العربية، بحيث تقوم العلاقة بينها وبين الإعلام على أساس سليم، فلا يطغى طرف على آخر، بحيث تبقى اللغة العربية محتفظة بشخصيتها، ويظلّ الإعلام يؤدي وظيفته في التنوير والتثقيف والترفيه النظيف، فيتكامل الطرفان وينسجمان، فتصبح اللغة في خدمة الإعلام، ويصبح الإعلام داعما لمركز اللغة"[xliv].

ـ تعزيز حضور اللغة العربية على مواقع التواصل الاجتماعي وشبكة الانترنت، ومشاركتها في الإنتاج الرقمي التربوي والعلمي والثقافي والاقتصادي التنموي والذي لا تتعدى نسبة حضورها فيه حاليا 1%، وذلك عن طريق استخدام الحاسوب في تحليل اللغة العربية: "وحشد كل الطاقات لإنتاج برامج حاسوبية قادرة على تحليل الجملة العربية وترميزها، لكي تتمّ الإفادة من خدمات بنوك المعلومات الآلية المنتشرة في العالم، ومن ثَمَّ نقل المصطلحات الأجنبية إلى العربية آليا"[xlv]، هذا من جهة، ومن جهة أخرى الحرص على الإعداد الجيد للأفراد ليكونوا قادرين على استيعاب الانفجار المعرفي، والتمكُّن من المعلومات والتكامل معها. فبما أن منع الاختراق الفكري والغزو الثقافي أمر غير ممكن، فإن الحلّ يكمن في رفع مستوى دافعية التحصين لدى أفراد المجتمع، وتزويدهم بأدوات النقد الإيجابي البناء، وتدريبهم على التحاور الحضاري الثقافي.

ـ نشر الوعي اللغوي لدى أفراد المجتمع بأهمية اللغة العربية في توفير الأمن الثقافي والحفاظ على هوية الأمة وذاتيتها الثقافية، والارتكاز عليها للتواصل مع الآخر والانفتاح عليه بثقة وقوة على أساس المساواة والندية، وليس التبعية الدونية الثقافية التبريرية. لأن تعزيز مكانة اللغة العربية في المجتمع ليست شأنا خاصا بالقوانين والتشريعات فقط، بل هي قضية قومية بالدرجة الأولى

ـ تنمية الحس النقدي الحضاري لدى أفراد المجتمع وتزويدهم بالقيم التي تحميهم من غوائل الغزو الفكري وتجعل التواصل الثقافي مع الآخر الذي أصبح مفروضا على الجميع تواصلا انتقائيا حفاظا على العقيدة والهوية والأخلاق من عبث العولمة الثقافي والفكري، وهذا يتطلب وجود منظومة ثقافية متناسقة ومتكاملة من القوى التحصينية التي تضمن مقدرات كافية على مواجهة التحديات الداخلية والخارجية للنظام الثقافي.

ـ توفير هامش من الحرية للقوى الذاتية المتوفرة في المجتمع، لكي تمارس دورها الثقافي في زيادة الوعي، وتعميم المعرفة، ومقاومة مظاهر الاختراق الثقافي والفكري. حيث أن إسناد هذه المهمة للنخبة المؤهّلة في المجتمع المدني سيحدث بلا شك فارقا واضحا في تحقيق الأمن الثقافي، وهذا يعني أن تتضافر جهود الدولة والمجتمع عبر المؤسسات الرسمية والأهلية، والمبادرات الفردية، التي تتجه لتنشيط الحياة الثقافية في الوسط الاجتماعي، لأن وجود وتفعيل عناصر الحياة لثقافتنا في المجتمع، هو من الوسائل الفعالة التي تقاوم الاختراقات، وتمنع عمليات التخريب الثقافي: "فالأمن الثقافي ذو جانبين: جانب سلبي يتجه إلى خلق حالة الممانعة والرفض الثقافي لكل عمليات الاختراق الإعلامي والثقافي، وجانب إيجابي: يتجه إلى صنع الحياة الثقافية الذاتية، التي تعمل على تقوية البنيان النفسي والفكري للمجتمع، بحيث يصل المجتمع إلى درجة من الوعي والإدراك، يُفْشِل من خلالها كل عمليات الاختراق في حقل الثقافة والإعلام"[xlvi].

ـ تحقيق التنمية الثقافية الشاملة بإعادة بناء المؤسسات الثقافية في الداخل وتقويتها لتأدية دورها في خدمة الثقافة الوطنية: "إن تجديد الثقافة أية ثقافة كانت لا يمكن أن يتم إلا من داخلها بإعادة بنائها.. هذا إذا ما أردنا الدفاع عن هويتنا الثقافية في مستوياتها الثالثة (الفردية والجماعية والقومية)"[xlvii]. والأمن الثقافي كما أسلفنا لا يعدو أن يكون رغبة داخلية في حماية الذات الحضارية مما يتهددها من الأخطار، وكلما كانت المؤسسات الثقافية قوية كلما كانت قدرتها على التحصين والدفاع والتعاطي مع الواقع العالمي عالية.

ـ إعداد المشاريع والمخططات الثقافية لنشر الثقافة العربية باللغات الأجنبية والتعريف بها وبأصالتها وعطائها الحضاري، ودورها في إثراء الرصيد المعرفي الإنساني، ودفع الشبهات التي طالتها أثناء الصراع الفكري الذي نشب بين البلدان العربية والاستعمار الحديث، ومجابهة الغزو الثقافي الأجنبي بالوسائل الفعالة والأساليب المدروسة التي تعتمد على الحوار الهادئ، والخبرة في عرض المعلومات وإيصالها إلى المخَاطَبين بها، والمهارة في تقديم الخطاب، ومتابعة درجة التفاعل معه لفتح باب التحاور الحضاري والاستفادة منه في الترويج للثقافة العربية.

ـ الانفتاح على الآفاق الإنسانية الواسعة، والمشاركة الفعالة في الإبداع العالمي في جميع فروع العلم والمعرفة والتكنولوجيا والابتكار، والولوج إلى مجتمع المعرفة، والعمل الجاد لامتلاك ناصية العلوم، لأن التشبث باللغة العربية وتقوية الارتباط بها والوفاء لها وضمان الحماية لها وتطويرها، كل ذلك لا يمنع بأية حال من الانخراط في حركة الواقع العالمي وتبادل التأثير والتأثر معه، وأن تحقيق وتعميق الانتماء للثقافة القومية لا يجب أن يتحوّل إلى انغلاق وتقوقع وعداء للآخر، فلا بدّ . في كل الأحوال . أن يظل الانفتاح والتواصل هو الأساس الذي تقوم عليه العلاقة مع شعوب العالم وثقافاته.

خاتمة

وفي ختام هذا البحث نخلص إلى أن الأمن الثقافي العربي الذي فرضته العولمة على المجتمعات العربية فرضا أصبحت الحاجة إليه ملحّة، بعد أن تبيّن أن الثقافة المغلوبة في هذه الظروف العالمية العصيبة تتحول تلقائيا إلى ثقافة منهوبة لصالح الثقافة الغالبة، وغير قادرة على المقاومة والتحصين، ومكتفيةً برد فعل دفاعيّ لا يلبث أن

يستهلك قواها ويجردها من كل وسائل الصمود. كما اتضح لنا أيضا أن اللغة العربية هي الركيزة الأساسية في صياغة مشروع هذا الأمن الثقافي، والقاعدة المتينة التي تتكئ عليها المجتمعات العربية للوصول إلى بر الأمان وسط أمواج العولمة المتلاطمة، وأن حمايتها بالقوانين الرادعة، وتنميتها وتطويرها وتأهيلها لدخول معترك الحياة المعاصرة هو الخيار الوحيد الذي يضمن لها البقاء، وأن وضع استراتيجية واضحة المعالم لمواجهة التحديات الكبرى التي تواجهها هذه المجتمعات أصبح ضرورة قصوى لا تحتمل التأجيل في ظل مستجدات الواقع العالمي المتسارعة التي لا تمهل الضعفاء والمتباطئين. وقد توصلنا إلى جملة من النتائج نجملها فيما يلي:

1. أن الأمن الثقافي مصطلح معاصر برز إلى السطح واستقطب اهتمام الدوائر الأكاديمية والفكرية والسياسية تزامنا مع ظهور العولمة وتمدّدها، واتساع نطاقها، وظهور آثارها في التضييق على الهويات والخصوصيات الثقافية لمختلف الأمم والشعوب.

2. أن الأمن الثقافي قد استحوذ على الاهتمام بعد أن تبيّن أنه أكثر تأثيرا في توجيه الأحداث العالمية من الأمن القومي الذي يعتمد في أساسه على الأمن العسكري في المقام الأول ثم الأمن الاقتصادي، وأن العولمة قد همّشت الأمن القومي لصالح الأمن الثقافي بعد أن أسقطت الحدود، وتجاوزت سلطة الدول، ووصلت إلى كل أطراف العالم من خلال السماوات المفتوحة التي أتاحتها لها ثورة الاتصالات.

3. أن العولمة الثقافية تمثل تهديدا خطيرا لجميع الخصوصيات الثقافية والهويات الحضارية التي تخالف النموذج الغربي الذي تروج له العولمة التي تتحكّم في كل الوسائل والأدوات التكنولوجية والمعرفية التي تمكنها من الاستحواذ على الكيانات الثقافية وتسخيرها لخدمتها، أو تفكيكها والقضاء عليها في حال وجود أية محاولات منها للمقاومة ورفض الاحتواء.

4. أن المجتمعات العربية التي تعيش حالة مزرية من التخلف، وتعاني من التبعية السياسية والاقتصادية الواضحة مطالبة بأن تسعى لتوفير الأمن الثقافي الذي يحمي كيانها الحضاري من التلاشي، ويُبعِد عنها شبح الابتلاع الثقافي الذي تمارسه العولمة بكل احترافية ومنهجية، وبخاصة وأنها وريثة حضارة عريقة أمدّت الإنسانية بعطاء معرفي ثريّ وغزير لا يُنكَر.

5. أن الدراسات النفسية والاجتماعية قد أثبتت أن العلاقة بين اللغة باعتبارها منتجة للثقافة وصانعة للهوية وبين الأمن الثقافي العربي علاقة جدلية، وترابط قويٌّ وتفاعل مستمر بحيث يؤثر كل منهما في الآخر إيجابًا وسلبًا، قوةً وضعفًا؛ فكلما قويَت اللغة توفر قدر أكبر من الأمن الثقافي للمجتمع، وكلما ضعفت نقص رصيد هذا الأمن واستفحلت الأخطار التي تهدده، لأن انتفاء الأمن اللغوي لا يقل أهمية عن انتفاء الأمن العسكري والاقتصادي.

6. وبناءً عليه، فإن اللغة العربية هي الركيزة الأساسية ونقطة الجذب الرئيسية التي يقوم عليها هيكل الأمن الثقافي العربي ويعتمد عليها في مواجهة التحديات، وتجاوز العقبات، وحماية الذات الحضارية، وإعادة تفعيلها، ومدّها بما تحتاج إليه من أساليب المقاومة، وطرق الصمود، والقدرة على الانخراط في مجريات الواقع العالمي والمساهمة فيه بقوة وثقة.

7. أن اللغة العربية التي تمثل خط الدفاع الأول عن الكينونة الحضارية للمجتمعات العربية بحاجة ماسة في هذه الظروف التي تعيشها في ظل العولمة إلى العناية والرعاية التي تخلصها من مظاهر ضعفها، وتشدّ من أزرها، لتتمكّن من أداء دورها في توفير الأمن الثقافي اللازم للمجتمعات العربية التي تعصف بها الأخطار من كل جانب من خلال تأمين انتقال تراثها الغنيّ من جيل إلى جيل، بحيث يتحوّل إلى درع قويّ يلهم الأجيال معاني العزة والانتماء ويمدّها بأسباب البقاء، والقدرة على العطاء.

8 . أن اللغة العربية التي تعيش . كما أسلفنا . ظروفا عصيبة مطالَبة بأن تكون في مستوى التحديات، وأن تستفيد من خطة استراتيجية تمكّنها من مواجهة هذه الأخطار، وتجاوز التحديات لتتمكّن من الصمود، وتنجح في تثبيت أقدامها في هذا العالم الذي يموج بالحركة والتغيّرات السريعة، وفي الانخراط في موجات العولمة بقوة وثقة، والاندماج في تحولاتها، والاستغراق في تياراتها تمهيدا للاستفادة من إيجابياتها، وتفادي سلبياتها ما أمكن لها ذلك.

9 . أن هذه الاستراتيجية تتضمن التركيز على المجالات الحيوية ذات الصلة الوثيقة بالهوية والثقافة، ومنها القرار السياسي الحازم الذي يسن القوانين والتشريعات التي تحمي اللغة العربية من التهميش والإقصاء لحساب اللغات الأجنبية، وإصلاح مناهج التربية والتعليم بحيث يكون هدفها الأول والأسمى التمكين للغة العربية في العقول والألسنة، والحرص على تعريب التعليم وبخاصة الجامعي منه، والتمكين لها في وسائل الإعلام، وتعزيز حضورها على مواقع التواصل الاجتماعي وشبكة الإنترنت، ونشر الوعي بين أبنائها بأهميتها في توفير الأمن الثقافي لهم وحمايتهم من مخاطر الانسلاخ والذوبان في الكيانات الغريبة عنهم، وتنمية الحس النقدي الحضاري لديهم ليكون انفتاحهم على الحضارات والثقافات الإنسانية إيجابيا.

10. أن التحدّي القائم اليوم يحتّم على المجتمعات العربية الاهتمام بقضية الأمن الثقافي اهتماما جديا، وتفعيل اللغة العربية لتكون الوسيلة المثلى للمواجهة حتى لا تطالها آثار العولمة المدمرة التي تسلّطت على كثير من الثقافات والهويات الحضارية في مختلف بلدان العالم فغَيَّبتها وقطعت صلتها بجذورها فأصبحت مفتقدة لكل معاني الانتماء كالريشة في مهب الريح.

قائمة المصادر والمراجع

أولا: الكتب

1. ـ أحمد درويش. ثقافتنا في عصر العولمة. الشركة المصرية العالمية للنشر (لوجمان). القاهرة.
2. ـ أحمد علي المجذوب. مفهوم الأمن الفكري والعقائدي، مفاهيمه وخصائصه وكيفية تحقيقه. الرياض 1408هـ/1988م.
3. ـ أرمان ماتيلار. التنوع الثقافي والعولمة. ترجمة: خليل أحمد خليل. دار الفارابي. بيروت. 2008م.
4. ـ روبيرت فيليبسون. الهيمنة اللغوية. ترجمة: سعد بن هادي الحشّاش. جامعة الملك سعود للنشر العلمي والمطابع. الرياض. 2008م.
5. ـ سناء منيغر. التنوع الثقافي من منظور الأمن المجتمعي. رسالة ماجستير. جامعة سطيف. الجزائر. السنة الجامعية 2014/2013م.
6. ـ صفية نزاري. الأمن الثقافي لمنطقة المغرب العربي في ظل تنامي العولمة: دراسة مقارنة لحالات الجزائر ـ تونس ـ المغرب. رسالة ماجستير. جامعة باتنة 1. الجزائر. السنة الجامعية 2011/2010م.
7. ـ عبد الغني عماد. سوسيولوجيا الهوية، جدليات الوعي والتفكُّك وإعادة البناء. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت. 2017م.
8. ـ عبد السلام المسدي. الهوية العربية والأمن اللغوي، دراسة وتوثيق. المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. قطر. ط1. 2014م.
9. ـ عبد العزيز بن عثمان التويجري. العولمة والحياة الثقافية في العالم الإسلامي. دار الفكر العربي. القاهرة. 2001م.

10. ـ عبد العزيز بن عثمان التويجري. مستقبل اللغة العربية. منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ـ إيسيسكو ـ 2004م.
11. ـ عبد العلي الودغيري. العربية أداة للوحدة والتنمية وتوطين المعرفة. المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. قطر.2019م.
12. ـ محمد البشير الإبراهيمي. الآثار. دار الغرب الإسلامي. بيروت. 1997م.
13. ـ محمد سعدي. مستقبل العلاقات الدولية من صراع الحضارات إلى أنسنة الحضارة وثقافة السلام. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت. 2006م.
14. ـ محمد شقشوق. العولمة الثقافية، المفهوم والتجليات. المجلة العربية للعلوم السياسية. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت. ع32. 2011م.
15. ـ مجموعة من الكتاب. الأمن الثقافي. مؤسسة سلطان بن علي العويس. دبي. الإمارات العربية المتحدة. ط1. 2019م.
16. ـ محمود أمين العالم وآخرون. الفكر العربي بين العولمة والحداثة وما بعد الحداثة. قضايا فكرية للنشر والتوزيع. القاهرة. 1999م.
17. ـ نبيل علي. الثقافة العربية وعصر المعلومات. عالم المعرفة. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت. 2001م.
18. ـ نصر الدين أحمودة وآخرون. العولمة وتأثيرها على الأمن الثقافي، الثقافة العربية نموذجا. مذكرة ماستر. جامعة قالمة. الجزائر. السنة الجامعية 2013/2012م.

ثانيا: الدوريات

19. ـ مجلة مجمع اللغة العربية الأردني. مج29. ع68. 2005م.
20. ـ جريدة الوطن. الإمارات العربية المتحدة. ع1530. الصادر بتاريخ: 2009/06/03م
21. ـ مجلة الأثر. جامعة ورقلة. الجزائر. ع21. ديسمبر 2014م.
22. ـ مجلة كلية التربية. جامعة المنوفية. مج31. ع4. 2016م.
23. ـ مجلة الباحث للدراسات الأكاديمية. كلية الحقوق والعلوم السياسية. جامعة باتنة. ع11. 2017م.
24. ـ مجلة التراث. ع28. جامعة الجلفة. الجزائر. 2018م.
25. ـ مجلة المستقبل العربي. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت. مج41. ع481. 2019م.

ثالثا: المواقع الإلكترونية

26. https://platform.almanhal.com/GoogleScholar/Details/?ID=2-80892
27. https://www.alriyadh.com/185952
28. https://www.awraqthaqafya.com/917/
29. https://www.politics-dz.com/
30. https://albayan.co.uk/MGZarticle2.aspx?id=6518

---

[i] ـ سناء منيغر. التنوع الثقافي من منظور الأمن المجتمعي. رسالة ماجستير. جامعة سطيف. الجزائر. السنة الجامعية 2014/2013م. ص2

[ii] ـ عبد الإله بلقزيز. "في مفهوم الأمن الثقافي". جريدة الوطن. الإمارات العربية المتحدة. ع1530. الصادر بتاريخ: 2009/06/03م

[iii] ـ محمد سعدي. مستقبل العلاقات الدولية من صراع الحضارات إلى أنسنة الحضارة وثقافة السلام. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت. 2006م. ص265

[iv] ـ المعتصم بالله أحمد الخلايلة. أبعاد العولمة الثقافية على الهوية العربية في عصر الأحادية القطبية. مجلة التراث. ع28. جامعة الجلفة. الجزائر. 2018م. ص 252

[v] ـ محمد شقشوق. العولمة الثقافية، المفهوم والتجليات. المجلة العربية للعلوم السياسية. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت. ع32. 2011م. ص136

[vi] ـ أرمان ماتيلار. التنوع الثقافي والعولمة. ترجمة: خليل أحمد خليل. دار الفارابي. بيروت. 2008م. ص89، 90

[vii] ـ عبد الإله بلقزيز. "في مفهوم الأمن الثقافي".

[viii] ـ المرجع نفسه.

[ix] ـ المرجع نفسه.

[x] ـ مجموعة من الكتاب. الأمن الثقافي. مؤسسة سلطان بن علي العويس. دبي. الإمارات العربية المتحدة. ط1. 2019م. ص35

[xi] ـ عادل زقاغ. "إعادة صياغة برنامج البحث في الأمن المجتمعي". https://www.politics-dz.com/

[xii] ـ أحمد علي المجذوب. مفهوم الأمن الفكري والعقائدي، مفاهيمه وخصائصه وكيفية تحقيقه. الرياض 1408هـ/1988م. ص54

[xiii] ـ وهيب بوسعدية. الأمن الثقافي، دراسة في المفهوم والمهددات. مجلة الباحث للدراسات الأكاديمية. كلية الحقوق والعلوم السياسية. جامعة باتنة. ع11. 2017م. ص380

[xiv] ـ رانيا مكرم. مداخل نظرية وتطبيقية لتحليل الأمن الثقافي. 2015م. ص1. بوابة المنهل الإلكترونية: https://platform.almanhal.com/GoogleScholar/Details/?ID=2-80892

[xv] ـ مجموعة من الكتاب. الأمن الثقافي. مؤسسة سلطان بن علي العويس. ص85

[xvi] ـ أحمد درويش. ثقافتنا في عصر العولمة. الشركة المصرية العالمية للنشر (لوجمان). القاهرة. ص1، 2

[xvii] ـ نصر الدين أحمودة وآخرون. العولمة وتأثيرها على الأمن الثقافي، الثقافة العربية نموذجا. مذكرة ماستر. جامعة قالمة. الجزائر. السنة الجامعية 2013/2012م. ص29

[xviii] ـ مجموعة من الكتاب. الأمن الثقافي. مؤسسة سلطان بن علي العويس. دبي. الإمارات العربية المتحدة. ط1. 2019م. ص24

[xix] ـ عبد الغني عماد. سوسيولوجيا الهوية، جدليات الوعي والتفكّك وإعادة البناء. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت. 2017م. ص300

[xx] ـ محمد محفوظ. "في معنى الأمن الثقافي". https://www.alriyadh.com/185952

[xxi] ـ صفية نزاري. الأمن الثقافي لمنطقة المغرب العربي في ظل تنامي العولمة: دراسة مقارنة لحالات الجزائر ـ تونس ـ المغرب. رسالة ماجستير. جامعة باتنة 1. الجزائر. السنة الجامعية 2011/2010م. ص54

[xxii] ـ ينظر: محمد محفوظ. "في معنى الأمن الثقافي". https://www.alriyadh.com/185952

[xxiii] ـ المرجع نفسه

[xxiv] ـ محمد محفوظ. "في معنى الأمن الثقافي

[xxv] ـ نبيل علي. الثقافة العربية وعصر المعلومات. عالم المعرفة. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت. 2001م. ص233

[xxvi] ـ عربي بومدين وآخرون. "اللغة والهوية في الجزائر في زمن العولمة: نحو استكشاف العلاقة". مجلة المستقبل العربي. مج41. ع481. 2019م. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت. ص66

[xxvii] ـ الإبراهيمي. آثار محمد البشير الإبراهيمي. دار الغرب الإسلامي. بيروت. 1997م. ج1. ص378

[xxviii] ـ روبيرت فيليبسون. الهيمنة اللغوية. ترجمة: سعد بن هادي الحشّاش. جامعة الملك سعود للنشر العلمي والمطابع. الرياض. 2008م. ص58

[xxix] ـ عبد السلام المسدي. الهوية العربية والأمن اللغوي، دراسة وتوثيق. المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. قطر. ط1. 2014م. ص12

[xxx] ـ صفية نزاري. الأمن الثقافي لمنطقة المغرب العربي في ظل تنامي العولمة: دراسة مقارنة لحالات الجزائر ـ تونس ـ المغرب. رسالة ماجستير. جامعة باتنة 1. الجزائر. السنة الجامعية 2011/2010م. ص31

[xxxi] ـ المرجع نفسه. ص31

[xxxii] ـ عبد العزيز التويجري. العولمة والحياة الثقافية في العالم الإسلامي. دار الفكر العربي. القاهرة. 2001م. ص30

[xxxiii] ـ سعيد بكُّور. "الأمن الثقافي". https://albayan.co.uk/MGZarticle2.aspx?id=6518

[xxxiv] ـ مجموعة من الكتاب. الأمن الثقافي. مؤسسة سلطان بن علي العويس. دبي. الإمارات العربية المتحدة. ط1. 2019م. ص8

[xxxv] ـ سعد بن هادي قحطاني. تحليل اللغة العربية بوساطة الحاسوب. مجلة مجمع اللغة العربية الأردني. مج29. ع68. 2005م. ص11

[xxxvi] ـ عبد العلي الودغيري. العربية أداة للوحدة والتنمية وتوطين المعرفة. المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. 2019م.

[xxxvii] ـ زكريا مخلوفي. "واقع اللغة العربية في عصر العولمة". مجلة الأثر. ع21. ديسمبر 2014م. جامعة ورقلة. الجزائر. ص60

[xxxviii] ـ عبد العلي الودغيري. العربية أداة للوحدة والتنمية وتوطين المعرفة.

[xxxix] ـ عبد السلام المسدي. الهوية العربية والأمن اللغوي. ص20

[xl] ـ ينظر: بثينة عبد الرؤوف. التعليم الأجنبي والاستبعاد الاجتماعي. مجلة كلية التربية. جامعة المنوفية. مج31. ع4. 2016م. ص136

[xli] ـ واقع اللغة العربية في ظل تحدي العولمة https://www.awraqthaqafya.com/917/

[xlii] ـ المرجع نفسه

[xliii] ـ عبد العزيز بن عثمان التويجري. مستقبل اللغة العربية. منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ـ إيسيسكو ـ 2004م. ص7

[xliv] ـ زكريا مخلوفي. "واقع اللغة العربية في عصر العولمة". ص62

[xlv] ـ سعد بن هادي قحطاني. تحليل اللغة العربية بوساطة الحاسوب.

[xlvi] ـ محمد محفوظ. في معنى الأمن الثقافي

[xlvii] ـ محمود أمين العالم وآخرون. الفكر العربي بين العولمة والحداثة وما بعد الحداثة. قضايا فكرية للنشر والتوزيع. القاهرة. 1999م. ص23، 24